

تصور تعليمي لقراءة حدود الاتصال

بين التراث اللغوي والوفاة اللسانية

Educational visualization to read the limits of communication Between Linguistic heritage and upcoming linguistics

معمر منير العاني⁽¹⁾

الملخص

انطوى البحث على دراسة فاعلية القراءة، وتحقيق التواصل، واكتساب الثقافة، وتحصيل الوعي والواقعية، ثم انتقل إلى نمطي القراءات الذاتية والجمعية. وتناول النظام النحوي عند الخليل وسيبويه وابن الطراوة، وصولاً إلى جراءة التجديد عند ابن مضاء، وما قام به (دي سوسير) بدراسة اللغة نظاماً وظاهرة اجتماعية، و(جومسكي) بدراسة المعرفة اللغوية الموجودة في ذهن المتكلم ورصد التطورات الحاصلة بالاتجاه النصي بمعالجته الأجزاء اللغوية، وتقديم المعايير، والانتقال إلى لسانيات الحجاج بآلية السلام الحجاجية التي تطرح تصوراً معيناً لكيفية تدرج الحجج وانتظار نتائجها. وانتهى البحث إلى القضايا النحوية في كيفية التحول في فكر العالم النحوي، والتنوع في الفكر الجمعي للنحاة، والنظر إلى المخاطب، وتناول ضوابط عامة تحكم بناء الحقل الدلالي بسمتيه المركزية والمنطقية. **الكلمات المفتاحية:** التراث، اللسانيات، القراءة، اللغة، حدود الاتصال.

Abstract:

The research centrally revolves around studying the effectiveness of reading, achieving communication, acquiring culture, gaining awareness and realism. It then moves to the two patterns of self and collective reading.

It tackles the grammatical system of Al-Khalil, Sibawayh and Ibn Al-Tarawa, towards the bravery of renewal in Ibn Madaa, and De Saussure's reflections in studying language as a system and a social phenomenon, and Chomsky in studying the linguistic knowledge in the speaker's mind and following developments in the textual direction by treating the linguistic parts, presenting criteria, and moving to Al Hajjaj's Linguistics with the mechanism of his own ladders which present a specific conception of how arguments are traced and how their results are arrived at.

The research concluded with the grammatical issues on how to transform the thought of the grammatical scholar, the diversity in the collective thought of the grammarians, considering the addressee, and dealing with general controls governing the construction of the semantic field with its central and logical features.

Key Words

Heritage, Linguistics, Reading, Language, Limits of Communicatio

[DOI: 10.15849/ZJJHSS.220508.16](https://doi.org/10.15849/ZJJHSS.220508.16)

(1) أستاذ دكتور/ الجامعة العراقية/ العراق

المقدمة

تقديم المسعى

إننا نسلم إلى أن حال العربية لم يكن بمنأى عن وجوه من التوظيف للمناهج اللسانية، وأن أرباب العلوم الإنسانية قد أولوا العربية اهتمامهم، وجعلوا الدرس اللغوي مرجعاً لدعم كثير من معلوماتهم ومنطلقاً لبحث عدد من نظرياتهم، مؤمنين بما تشكله اللغة من ظواهر لها مزيد تعلق بالفضاء الكوني، ويمكن اقتضاب تلك المحددات بأسئلة آتية:

- ما إشكالات تنوع قراءة النص التراثي؟
 - ما المعارف اللسانية التي يستمسك بها في مدارس المتن اللغوي؟
 - ما المستويات اللغوية التي تناسب التطبيق في ضوء المناهج المعاصرة؟
 - والإشكال مسوغ وجوده بأسئلة أنت بعد طول مكث وتحصيل، وهي قائمة على:
 - هل يصح الانطلاق من التراث تأصيلاً نحو المعاصرة تحليلاً؟
 - هل وفر المنهج التراثي الكفاية في الوصف والكفاءة في التفسير؟
 - هل تمنح قراءة النصوص واستنطاق بواطنها في ضوء اللسانيات الحديثة القدرة على التدليل والتوظيف؟
- ثم نتطلع إلى تمثل أغراض آتية:
- الوعي بحقيقة النص التراثي؛ لأنه يمثل عصارة الفكر السالف.
 - القراءة الواعية للنص التراثي، وتأصيل أطره المنهجية، والإفادة منه لا الانغلاق عليه.
 - الوقوف على ضروب من البيئة اللسانية، ورصد التحولات التي طرأت على بنية الألفاظ وتراكيبها وأساليبها.

الشرط الأول

تأسيس لمهارة قراءة النص التراثي

تتوجه الرؤية إلى التراث بأنه مجموعة من المفاهيم والدلالات والرموز والإشكالات والعلاقات والأنظمة الفكرية المتولدة من السجلات التاريخية والأنظمة العلامية التي تحملها النصوص، على أن ما تقدم يبقى على حاله بالكيفية الفعل للأدوات الإجرائية المعاصرة التي أنتجت من حوله تأويلات متراكمة؛ ليصبح النص التراثي مؤولاً من خلال قراءة تراثية وقراءة حدثية، وكلا القراءتين توطن النص من منطلق وعي عربي بفاعلية التراث.

ويمكن أن نعول على هدف أساسي من وراء قراءة التراث يكمن في الولوج في أعماق النص، واستكشاف بواطنه الفكرية والجمالية، ويتوزع على:

الفاعلية القرائية

لا غرو أن لكل "قديم جديد، ولا يتكون الجديد إلا من القديم، ومن هذا المنطلق التطوري نستطيع مناقشة مفهوم الحدث، فهي متجددة في كل عصر بالضرورة الجدلية المسيطرة على كل مظاهر الحياة والفكر الإنساني"

¹، وقد لا أرمي بالوهم إذا رأيت وجهة التمسك بنسيج النص والتزام تحليله، وتقريب الموروث والوافد، وتحقيق ثنائيات معرفية العروة الوثقى تجمعهما لا انفصام بينهما، وهي قائمة في:

1. الاتصال والتواصل:

وفهم ذلك بمردٍ أتٍ من:

- الوعي باستمرارية التراث في أعمال أصحابه وتوجهاتهم.
- الميل إلى التراث؛ لثراء التفكير، وتنمية القدرات، ومواجهة المتطلبات.

2. التثقيف والمثاقفة:

بالنظر إلى المقاربة من جوانب آتية:

- ناحية التثقيف " التي تلزم الذات/ الأنا، أعني: تلزمنا نحن فيما يخصنا.
- الانتقال إلى الناحية الأخرى وهي المثاقفة مع الآخر بعد تأسيس خطاب على قاعدة الوعي بالمنظومة التراثية في تجلياتها المتعددة والمتواليّة"².

3. الوعي والمشاركة:

وتشتمل على:

- وعي الوقوف على " شرح المادة الموجودة في التراث وتنظيمها، ونفهمها على أنها مساهمة في التعريف بالتراث وإحيائه وتسهيل الاطلاع عليه"³.
- تأويل المشاركة بقراءات" تحاول أن تنتقل مما هو موجود في التراث بغية عصرنته، والخروج به إلى الحاضر، ونريدها مساهمة في تأريخ الفكر اللغوي القديم"⁴.

4. المنهجية والواقعية:

- المنهجية بتوظيف قواعد البحث اللساني السليم بعيداً عن الذاتية وعن التأويل المتكلف، فقراءة" التراث فهم لا يعوزه التأسيس اللساني في حد ذاته، فكل قراءة كما هو معلوم في اللسانيات العامة هي تفكيك لرسالة قائمة بنفسها، وما التراث إلا موجود لغوي قائم الذات، وإعادة قراءته هي تجديد لتفكيك رسالته عبر الزمن، وهي لذلك إثبات لديمومة وجوده"⁵.

- الواقعية فلا يمكن التخلي عن التراث سواء في امتداده أو محاورته، بيد أنه "قد يصدق القول بإمكان القطيعة بين التراث والحاضر على بعض مجالات الحياة المادية التي يمكن إسقاط قديمها من الحسبان ونسيانها؛ لانقطاع جدواه، واختراع ما يحل محله، مما هو أفضل منه، أما إذا جئنا إلى الأدب مجمع تجارب الأمم سواء بمعناها العام: التراث الإنساني للأمة بكل فروعها كان التلاحم مع التراث في كل نواحي الحياة والفكر أكثر لزوماً"⁶.

¹- عبد الهادي، محمد، التراث بين القطيعة والتواصل، أبحاث المؤتمر الرابع لإقليم شرق الدلتا، 2005، ص 80.

²- زيدان، يوسف، التراث العربي من التثقيف إلى المثاقفة، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق س 6، ع، 24، 1988، ص 33.

³- الفهري، عبد القادر الفاسي، اللسانيات واللغة العربية، دار توبقال للنشر، ط3، 1993، ص 59.

⁴- المصدر نفسه، ص 60.

⁵ المسدي، عبد السلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط1، 1986، ص 12.

⁶ التراث بين القطيعة والتواصل، ص 80.

ومن ثم، فإنّ الفهم يكون فعلاً يسعى إلى احتواء النص واستكناه حقيقته في تعددها، وهكذا، تشكل كل لحظة للقراءة جدلاً بين أفق مستقبل فارغ ينبغي أن يملأ، وأفق قد تحقق ولا يتوقف عن الانمحاء¹.

أ- اتجاهات قرآنية من متعدد

تنطوي مقولة القراءة على فعل من أفعال الحضارة الراقية، يمتزج فيها النزوع إلى الاستكشاف من منهج جمع "التمثلات ونفي المتناقضات؛ لتبدو بعدها الأشياء المألوفة مدهشة، وليس ذلك إلا لأنّ القراءة تجربة خاصة نعيد فيها تركيب الكلمات المألوفة بوجه خاص"²، فالكتابة تجربة نختبر فيها صدق الكلمات، ومدى تحقق الغايات، وهي في الوقت ذاته تأتي لتكشف مقاصد النصوص المرتبهة بسياقها وظروفها.

ويجدر بنا أن نشير إلى أنّ العقول تقرأ الأشياء قراءة هي من وحي ظلالها، فتغدو مظاهر الوجود متميزة ببراء التجربة الثقافية أو فقرها، وباتساع الرؤية أو ضيقها، ومن ثمّ فاستطاق النص التراثي لا يقتصر على شرح معانيه ومقاصده بل محاولة فهمه وفقاً للمعطيات الراهنة، واختيار الأقرب إلى مبدأ الأولويات التي تصل المنجز التراثي بالمنظور الحدائي، وتقرب الشقة بآليات معرفية واعية، وهذا "الاقتضاء مداره التراث من حيث هو يدعوهم إلى قراءته لا على أنه ملك حضوري لديهم، ولكن على أنّ ملكاً افتراضياً يظل بالقوة ما لم يستردوه، واسترداه هو استعادته له، واستعادته حمله على المنظور المنهجي المتجدد وحمل الرؤى النقدية عليه"³، وبنظرة عجلية يمكن أن نتبصر صنفين من الأنماط القرآنية:

الأولى - القراءة الذاتية

تلوذ بالذاكرة معرفية التي يتم من خلالها فهم النص وتأويله، ورسم أبعاد تمكن من التحوار مع التلقي؛ بأية أنّ بعض النصوص قد لا تستجيب لكل التأويلات، ولعلها تقدم جزءاً من الإجابات على كل الأسئلة المطروحة من لدن المتلقي المعاصر⁴، وعلى قصد من الاختيار أدون نمطين في هذا السبيل من غير تفصيل لحدودها ومضامينها: أحدهما القراءة التجديدية ممثلة بالإمام الشافعي، والقراءة البديعية لصاحبها ابن المعتز.

الثانية - القراءة الجمعية

تشمل كل ما كان يقع خلال المدة الزمنية والتاريخية المحددة، وتجلي هذا النسق المعرفي بالإبداع والإسهام في إنتاج المعرفة، واتصف بنكاملية نسبية تسلحت بمتناقضين: أحدهما التوافق في الخطاب المطروح، والآخر: يتغذى بالاختلاف الذي لم يفسد في الود قضية في بعض جوانبه، وأثرى به العلماء تصوراتهم وآرائهم، ويمكن تبيان أنماط من ثقافة القراءات بقراءة اللغويين لأبعاد النص القرآني، وقراءة المعتزلة بمنحى التأويل، وقراءة الأشاعرة بتحري جمالية النص.

¹ أبو زيد، حامد نصر، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط6، 2001، ص 6.

² ناصف، مصطفى، اللغة والتفسير والتواصل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع، 193، 1995، ص 41.

³ التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص 11-12.

⁴ يمكن الاستزادة من مدارك الأوجه القرآنية بمراجعة: الجابري، محمد عابد، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1985، ص 18، والكردوي، عبد الرحيم، قراءة النص مقدمة تاريخية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2006، ص 5.

الثالثة - القراءة الفكرية

بوضع تصورات منهجية، وتحديد إطار للمفاهيم التي يشتغلون فيها، سواء بالانغلاق على مسائل متعلقة بالتراث، أو طرح علاقات بين الموروث والوفاة، وعلاقة "الحاضر"، أو تحري رؤى نقدية تدفع بالمسألة التراثية إلى مستويات لم يتم التطرق إليها، وبدا لي أن الأفكار القرائية تدور في فلك التقسيم القادم:

- القراءة الاستنتاجية، وهي محكومة بسلطة النص.
- القراءة التأويلية بانتاج وجهات نظر بالتلخيص والتحليل.
- القراءة التشخيصية برصد المآخذ بالنقد على الخطاب.

الشطر الثاني

اعتماد نسق التتابع للتواصل بين التراث اللغوي والمنجز اللساني

الأول: مثلٌ من النظام النحوي" إقرار الرواية وقرار الدراية"

إذا أطلنا على المشهد اللغوي ثبت أن "اللغة نظام أو نسق علامات تربطها شبكة العلاقات من التتابعية أو الاستبدالية، وهو أمر عرفه العربي وقتله بحثاً وجدلاً لما يقرب من خمسة قرون على الأقل، وأنا فيما ناقشناه من نظرية اللغة العربية حتى الآن كنا نستطيع تطوير المفاهيم التراثية - لو أردنا - مستخدمين مصطلحات عربية أصيلة"¹، على أننا لا يمكن أن نترك مسلك النظريات اللسانية على عواهنه؛ ذلك أن "تعدد القراءات يفقد التراث اللغوي العربي خصوصيته الحضارية، وذلك عندما تجعله قابلاً لأن يصاغ حاضراً ومستقبلاً في أي نظرية لسانية ممكنة، وأنه كلما ظهرت نظرية لسانية جديدة فإن النحو العربي يكون قادر على احتوائها"²، فالنحو العربي منظومة معرفية تشكلت في الثقافة الإسلامية، إنه "نسق فكري وضع في فترة تاريخية محددة نتيجة عوامل معينة، وقام على أسس فكرية معينة باعتباره جزءاً من بنية ثقافية عامة بمختلف مكوناتها الحضارية: فكرية، واجتماعية، ودينية، وسياسية"³.

ومن الأنظار التي تجلي مطلبنا المعقود من التوزيع القادم:

أ- مرجعيات في تلقي النحو العربي

يقول كمال بشر في عموم الدرس اللغوي: " أنه لم يكن هناك خط تفكيري متصل في دراسة اللغة، وإنما كانت هناك اتجاهات شتى، ومبادئ متنوعة، يختلط بعضها ببعض، بل ربما ناقض بعضها البعض الآخر، وأنه لمن الصعب أن نقرر أن هناك منهجاً واحداً متكامل الخطوات مترابط الأطراف، وإنما لكل منها مجموعة من الاتجاهات التي يغلب بعض معين منها على مدرسة دون أخرى"⁴.

¹ حمودة، عبد العزيز، المرايا المفجرة نحو نظرية نقدية عربية، عالم المعرفة، 272، 1990، ص 257.

² إسماعيل، حافظ، وأحمد الملاح، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص 84.

³ المصدر نفسه، ص 84.

⁴ بشر، كمال، دراسات في علم اللغة، القسم الثاني، دار غريب، القاهرة، 1986، ص 60.

وعلى صعيد مقامنا يؤمن دارسون بفكرة فقدان الإطار النظري قارين أن " النحو العربي شأنه في ذلك شأن ثقافتنا التقليدية في عمومها يقوم على أنواع من التفكير الجزئي"¹ ، "فالنظرة فيه محصورة في إطار الجزئية التي يتناولها الباحث النحوي، ولا تتسع لغيرها من الجزئيات، وهذا أمكن للاضطراب والتناقض أن يسم أبحاث هذا المنهج ونتائجه جميعاً"².

والأولى - بحسب ظني - أن نقل الزعم بمقولة الجزئية التي صدرت عن التراث النحوي، وفهم الافتراق في توجيه الأطر المنهجية والحكم عليها باقتدار، والوقوف على الغاية التي من أجلها تشكل النحو العربي بمقدار، فلا ريب أنه من علوم الآلة المتين، وقد اتخذ مسلكاً للتقويم في اللسان وفهم النص واستجلاب البيان والتبيين. وأرى أن أشرط الصحة تتوجب "التردد في نقد التفكير اللغوي العربي ووصمه بأنه لا يستند إلى نظرية واضحة في دراسة اللغة، وإن دراسة اللغة عند العرب كانت أمشاجاً مختلطة من مناهج متعددة، وأنها تفنقر إلى وحدة المنهج... ومعنى هذا أننا في حاجة إلى نظرة موضوعية للتراث العربي، أو بعبارة أخرى دراسة التراث العربي في ذاته ومن أجل ذاته، لكي نكشف عن هذه النظرية اللغوية التي استند إليها القدماء في بحثهم للغة"³. ولي أن أستظهر مرجعيات تدلل على التنوع في قراءة النحو العربي وفهمه:

- أ- التأسيس الأول: وانصرف إلى بيان الأصول انطلاقاً من المتون في السماع والقياس، ورائده الخليل وتلميذه سيبويه في الكتاب.
 - ب- التتابع التأصيلي: ويمثل مرحلة إتمام البناء، والترتيب المنهجي وتقرير الإيضاح، ومثله مصنفات كالمقتضب للمبرد، والأصول لابن السراج.
 - ت- هواجس الافتراق: وفيها ملامح النفور عن التكرار، والتقليل من الصناعة باستطراد، وطالعنا فيها ابن الطراوة.
 - ث- جراءة التجديد: والمستهل نقد التقدير، والنأي عن الإيغال في العوامل، وإبطال العلل، وهذا دأب السهيلي ومن بعده ابن مضاء، وهو ليس ببعيد عن محاولات وسمت بالتيسير، كما فعل إبراهيم مصطفى في الإحياء، والجواري وغيرهما.
- ومن بعد فأصل إلى رجع النظر في أمرين:

- لا يجوز محاكمة ما صدر عن الأوائل من تعقيد وآراء بمنظار الدراسات الغربية بإطلاق، ودوننا في تقريب استنطاق النص بالتدليل على وسائله ومضامينه في صنيع الغرب ما صدر عن جومسكي بأن اللسانيين عموماً إلا قليلاً لم يهتموا" بالإسهامات المقدمة إلى النظرية اللسانية من قبل التقليد الأوروبي السابق، واهتموا بمسائل مختلفة جداً داخل نطاق ثقافي بعيد عن أن يجعلهم مدركين للمسائل التي أثارها

¹ أيوب، عبد الرحمن، دراسات نقدية في النحو العربي، مقدمة المؤلف، مؤسسة الصباح، الكويت، 1982، ص 3.

² أبو المكارم، علي، الحذف والتقدير في النحو العربي، دار غريب، القاهرة، ط2، 2001، ص 310.

³ خليل، حلمي، العربية وعلم اللغة البنوي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط1، 2000، ص 178.

الدراسات اللسانية الأكثر قدماً، والتي أوصلت إلى النتائج المحققة إلى الآن، وما زلنا إلى اليوم نجهد كثيراً من إسهامات الماضي هذه أو ننظر إليها باستخفاف غير خفي¹.

- تحري مقاربات واعدة، وقدرة على الاستنباط، والكشف عن النظريات والمنهاج غير المصرح به من القدماء، ومغادرة الاعتكاف على الأبواب والمسائل من غير انتقاء للوسائل التي تزخر بها، وإمكانات تفسيرها، واكتشاف الأغراض الكامنة وراء البناء اللغوي، والشائج التي تربط بين أنماطه، وتأمل السياق وما ينتج عنه من دلالات ظاهرة وباطنة، وغير منبت الصلة عن الإدراك قول الفارابي في الإحصاء² والقوانين في كل صناعة أقاويل كلية جامعة ينحصر في كل واحد منها تفسيرات كثيرة مما تشتمل عليه تلك الصناعة، حتى تأتي على جميع الأشياء التي هي موضوع الصناعة، أو على أكثرها، وتكون معدة إما ليحاط بها ما هو من تلك الصناعة؛ لئلا يدخل ما ليس منها، أو يشذ منها ما هو منه، وإما ليتمحن بها ما يؤمن أن يكون قد غلط فيها غالب³.

ب- حصائد من الوعي والسعي:

لم تمنع القدسية المقررة في النحو عدداً من الدارسين بأن يتأبطوا نظريات لسانية جديدة؛ بحجة أن النظرية موجودة - أغلب الظن - ولكنها تحتاج إلى الكشف عنها، فليس من المعقول أن يقوم هذا البناء الضخم في درس اللغوي دون نظرية³، وقد قاد ذلك إلى البحث في المنهج ولا سيما عند نحاة العربية؛ لأن هذا النحو - أولاً - له من التاريخ ما لانعرف عن نحو آخر في لغة من اللغات، ولأن هذا النحو - ثانياً - قد كثر فيه الحديث في السنوات الأخيرة كثرة أدت إلى شيء من الاضطراب ولا تزال، حيث يذهب ذاهبون إلى التمسك بكل ما جاء فيه، ورفض كل ما يقدمه المحدثون، وحين يذهب آخرون إلى ترك جل ما فيه والتوجه إلى الدرس الحديث⁴.
ينبئ هذا الاختلاف بالتعامل مع المتن النحوي في ثنائية المحذور والرغوب، وقد تنبه إليها من قبل نهاد الموسى في معالجته لنظرية النحو العربي مصرحاً بأنه "عارف بالمفارقة المستهجنة الناجمة عن المقابلة بين منهج النظر النحوي عند العرب، ومناهج النظر اللغوي الحديثة؛ لما اكتنف كلا منهما من ظروف مغايرة وسياق تاريخي ثقافي خاص، ولكن لي في منهج التحليل التقابلي الذي يجازف بالمقابلة بين لغات لا تربطها علاقات الأسر اللغوية المتعارفة مستأنساً بأنه إذا كانت تلك المقابلة تهيء ضرباً من المدارس يعين على فهم الظاهرة اللغوية، فإن هذا اللون من المقابلة قد يعين على فهم طبيعة النظر في الظاهرة اللغوية⁵".

وننتج عن ذلك التوجه إرساء أسس منهجية تحاكي الفكر النحوي القديم، وتقابله بالمعطيات اللسانية الحديثة ما دعت الحاجة إلى هذا السبيل، وحينئذ تأتي جهود لتسلك سبلاً كان مستهلها المنهج الوصفي والمنهج التحويلي، وفي ذلك حاول عدد من العلماء " أن يبحثوا النحو العربي بحثاً جديداً، وأن يطوروه على ضوء ما يصل إليه التقدم الإنساني في هذا المجال، غير أن المنهج الوصفي ما لبث أن تغير تغيراً أساسياً في السنوات القليلة

¹Chomsky, Noam, et la linguistique cartésienne P.152

² الفارابي، أبو نصر، إحصاء العلوم، تحقيق: علي بو ملح، دار ومكتبة هلال، بيروت، ط1، 1996، ص 4.

³ العربية وعلم اللغة البنوي، حمي خليل، ص 197.

⁴ الراجحي، عبده، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988، ص 9.

⁵ الموسى، نهاد، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، المؤسسة العربية، عمان، 1980، ص 11.

الماضية، حيث عاد اللغويون إلى اعتبار الفعل الإنساني مصدراً ضرورياً من مصادر الدرس اللغوي، وظهر منهج جديد لا يزال يتطور كل يوم، وهو ما يعرف الآن بالمنهج التحويلي¹.

وبتتابع الزمن توالت الموجات النحوية المعاصرة، ولم تزل عن الاهتداء إلى قراءة وطيدة الدعامة بتأصيل القدماء، ومنها على سبيل التذكير لا الحصر ما وسع الدراسة من النحو الوظيفي، وتكفله بالاستقراء التقعيد والانتقال بين القياس والتعليل والمناقشة والتعقيب بمقتضيات الصناعة وواقع الاستعمال، يقول المتوكل: المنطلق في المنهجية التي نقتربها لقراءة التراث اللغوي العربي هو أن المفاهيم المعتمدة في علوم اللغة العربية تنزع إلى التوحد، وإن تعددت هذه العلوم، وإلى تشكيل إطار نظري يخلف الدراسات النحوية والبلاغية والأصولية والتفسيرية على حد سواء، وتطمح هذه المنهجية إلى تمكين قارئ التراث من تلافي منزلتين: منزلق القطيعة ومنزلق الإسقاط².

ومن تمام ما ندب اللغويون أنفسهم لدراسته تواصل القراءة ليتم الانتقال من نحو الجملة إلى نحو النص، وليسهم في "تغيير القبلة البحثية، وذلك بالانتقال بالنحو العربي واللسانيات العربية بعامة من طور ظل فيه النحو حبيس أسوار الجملة، أي الكلام المفيد فائدة يحسن السكوت عليها، إلى طور يكون فيه النحو بالمفهوم الواسع للمصطلح قادراً بوسائله على محاصرة النص ووصفه والكشف عن علاقاته التي تحقق بها نصية النص؛ بما هو حدث تواصلية مركب ذو بنية مكثفة بنفسها، قادرة على الإفصاح والتأثير والفعل"³، آخذين بالحسبان مراعاة الانطلاق من النص إلى الأحكام اللغوية، وليس العكس.

الاعتماد الثاني: تمثل مسار النشاط اللساني

لم يتمكث عدد من الدارسين بإقراره شكل تقديم النظرية الغربية هاجساً ملحاً على الدارسين؛ لأنها جاءت لتقدم للمتلقي ما اصطنعه الغربيون من مناهج عدة، ورافق ذلك دعوات إلى "استثمار المناهج الحديثة في البحث اللساني، ومن أهمها البنيوية، إذ أن للدراسات اللغوية العربية أن تعتمد البنيوية كعنصر تجديد سيكتب له البقاء والنجاح المستمر"⁴، لتنتقل "اللسانيات من حقل الدراسات التاريخية إلى حقل الدراسات الاجتماعية مما جعلها تخضع إلى منهجية موضوعية صارمة وطرائق علمية صرفة"⁵.

وفي ثقافة الأشكال يبدو جلياً أن اللسانيات المعاصرة وفدت علينا لتتأمل منها الانتفاع والتنقيف بالدرس اللغوي، وأن تزودنا "بتقنيات منهجية ضابطة تعيننا على الكشف والتحليل، ومن الطبيعي أن يكون التراث هو ميدان المعركة الأول بين حاملي العلم الوافد والذين يعدون أنفسهم حماة التراث، كما أن هذا الميدان كان هو

¹ النحو العربي والدرس الحديث ، ص 10.

² المتوكل، أحمد، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2006، ص 186.

³ مصلوح، سعد، نحو أجرومية للنص الشعري، مجلة فصول، م10، ج1، 2000، ص 153.

⁴ طحان، ريمون، الألسنية العربية، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1981، ج1/ص12.

⁵ الألسنية العربية، ج1/ ص 27.

الميدان الوحيد الذي يمكن فيه اللسانيات الحديثة أن تبتجج جداولها في حل المشكلات وتفسير الغوامض والتماس العلل لكل ما قصرت وسائل البحث التقليدية عن القيام به¹.

والحق ليس بنا حاجة إلى عناء إذا رمنا مضماراً تطبيقياً لنص تراشي يتميز بالدقة والشمولية والانفتاح على العالم؛ ذلك أن القدماء في معالجتهم للواقع اللغوي تجاوزوا الفكر العربي إلى أفكار الشعوب الأخرى، فما قدموه يعد جماع ما تفرق من رؤى تشكلت عبر العصور، وغدا هذا المنجز يتسع لاتجاهين:

- إما أن يكون حاضراً في تحصيل المعارف اللسانية الحديثة.

- أو أن يُرجع إليه على سبيل تأصيل ما اكتسب من هذه المعارف².

وتطيل المدونة التراثية فينا الامتاع في معاودة قراءة الجهد القديم، واستكمال التفكير وفق تصورات حديثة، وتأسيس منظومة لغوية مشفوعة بمحاكاة وقائع الحياة اليومية، فلا شية في مسار البحث اللساني بالانتقال من "دراسة اللغة المتصورة نظرياً إلى اللغة الممارسة بالفعل، ولا معنى للبحث في اللغة إن لم يكن مجال تدريب يمكن من الإجابة في رصد أنماط الممارسة اللغوية الفعلية"³.

ولا يزال تحليل النص التراثي يتنوع، والمعاني تتلاحق وتتدفق بقدر ما يمارس عليها من قراءات لا تتشابه بل تتباعد في أنحاء واسعة وتدنو في أنحاء أخرى، فالمسعى بين الاغتراب والاقتراب يجمع مفاهيم النص في مجالاته المختلفة، ومما لم يغيب عن القدماء ثم أثبتته المعاصرون جملة من الحقائق القادمة:

- اللسان هو قبل كل شيء أداة للتبليغ والتخاطب.

- اللسان ظاهرة اجتماعية لا فردية.

- لكل لسان خصائص من حيث الصورة والمادة.

- اللسان نظام من الدلالة المتواضع عليها.

- للسان منطقته الخاص به من الأصول والجذور.

- اللسان وضع واستعمال، ثم لفظ ومعنى في كل من الوضع والاستعمال.

- للبنى اللغوية مستوى معين من التحليل⁴.

تأسيساً على ذلك وجب التركيز على القضايا اللسانية المتصفة بالشمولية والكونية مع استمرار "قاعدة تمازج الاختصاص التي تعد أساساً من أسس البحث الحديث، وقد سنت اللسانيات شريعته لما تتبعت الظاهرة اللغوية حيثما كانت، حتى ولجت حقولاً مغايرة لها، فاندكت بذلك مقولة اللغة كمنظومة قائمة بنفسها، وحلت محلها مقولة الإنسان مولداً للغة ومتقبلاً لهل وعاكفاً على فحصها، فأصبح الإنسان الحيوان الناطق محور البحوث اللسانية المعاصرة"⁵.

¹ مصلوح، سعد عبد العزيز، في اللسانيات العربية المعاصرة، عالم الكتب، بيروت، ط1، 2004، ص 28.

² إسماعيلي، حافظ عليوي، وليد أحمد عناتي، أسئلة اللسانيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط2009، ص 244.

³ أسئلة اللسانيات، ص 21.

⁴ لمزيد تفصيل ينظر: الحاج صالح، عبد الرحمن، مدخل إلى علم اللسانيات الحديثة، مجلة اللسانيات، جامعة الجزائر، ع 4، 1973-

1974، ص 46.

⁵ الفهري، عبد القادر الفاسي، ملاحظات أولى عن تطور البحث اللساني، ندوة اللغة العربية والنظريات اللسانية، كلية الآداب، فاس، سايس،

المغرب، 2007، ص 26.

إن صور النشاط اللساني العربي توزعت على مصنفات عنيت بعضها بدراسة مستويات اللغة العربية في ضوء الدراسات اللسانية المعاصرة ، وعنيت الأخرى بتقديم اللسانيات الغربية للقارئ العربي؛ ونظرا للتطورات التي عرفتها النظريات اللسانية فقد "عرف الخطاب اللساني بدوره اتجاهات متعددة ، الأمر الذي جعل كل محاولة تستهدف ترتيب الكتابة اللسانية وتصنيفها عملية محفوفة بكثير من الصعوبات"¹، وهذه التطورات إن لم يتم استيعابها في الثقافة اللسانية العربية ستظل نقاشاتنا تدور في مسار لا يخدم البحث اللغوي، فهناك عدد من القضايا التي ينبغي أن تعاد صياغتها وتصورها من جديد، فالعلوم المعرفية في الوقت الراهن فتحت آفاقاً رحبة لمناقشة عدد من المسائل المتعلقة بالعلوم الإنسانية أمثال: علم النفس بتناول المعجم الذهني، ومعرفة السلوك اللغوي، ومعالجة الأمراض الكلامية، وغيرها، وعلم الاجتماع بتمثل الأزواجية اللغوية، ومشكل الفصائل اللغوية ... إلخ.

وأطمئن أن تحليل المتن اللغوي الفصيح بأدوات الألسنية الحديثة مرتبط بوشائج غير واهية مع حياة المجتمعات؛ لنصل إلى استشعار قيمة الموروث في الاستدلال على الظواهر اللغوية بحس مشهود يتخير فيه صاحب الفكر المداخل التي ينفذ بها إلى غرضه، ويتصور واضح لمقتضيات الواقع وما آل إليه الفضاء الفكري من مقاصد تستأهل البحث والتتقيب.

نسق من المراتب في التنظير اللساني

أؤمن بأن اكتساب المعرفة اللسانية لقارئها لا بد أن يمر بمرحلتين متدرجتين تتصدران التصنيف في النظرة إلى اللغة وكيفية تناولها، قبل أن ينتقل إلى مراحل أخرى أعقبها قد استمدت من التطور في العلوم المعرفية والاتساع في دائرة البحث الإنساني، وأعني بالمرحلتين:

- مرحلة النظر إلى ذات اللغة بآلية التصنيف: وتمثلت في أعمال (دي سو سير)، وهذه المرحلة جعلت موضوع علم اللغة هو اللغة نفسها، وتحول الأهتمام من دراسة ما يحيط باللغة من تاريخ ومقارنة إلى دراسة اللغة دراسة بنيوية في ذاتها ولذاتها بوصف اللغة ظاهرة اجتماعية، والتصنيف في ذلك يكون بدراسة لغة معينة لمجتمع معين وتسجيل اللغة في المتن، ثم تأتي الملاحظة والتوزيع والوصف، وصولاً لتثبيت قواعد تخص تلك اللغة تكون قابلة للدرس والاستعمال.

وبذا وضع تصوراً جديداً - في وقتها - فرّق فيه بين اللغة كونها ظاهرة إنسانية والكلام كونه منطوقاً له وجود مادي يختلف من فرد لآخر ومن موقف كلامي لآخر (parole)، كما فرّق بين العلاقة الأفقية بتتابع الكلمات تتابعاً خطياً، والرأسية التي تتخذ الكلمات فيها الموقع نفسه وتنظم في عقل المتحدث؛ ليختار منها المناسب، ثم انتهى إلى الفرق بين التزامنية الهادفة إلى تحديد المبادئ الأساسية للنظام المتزامن (synchronies)، والتاريخية ببحث العناصر المتتابعة زمنياً²(diachronique)، وكل ذلك ألقى بظلاله على أعمال لسانية برزت على الساحة اللغوية منها: مدرسة جنيف، وبراغ، وكوبنهاجن، وغيرها، ويمكن

¹ غلفان، مصطفى، اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في الأسس النظرية والمنهجية، جامعة الحسن الثاني، ص 86.

² دروس في الألسنية العامة، ص 33.

التركيز - هنا - على مدرسة جنيف كونها مدرسة تقليدية يمثلها دي سوسير تطورت فيما بعد إلى اتجاه له خصائص أهمها¹:

- دراسة اللغة باعتبارها نظاماً وظاهرة اجتماعية.
 - الأخذ بالحسبان أهمية العلاقة بين الصوت والمعنى في عملية الاتصال.
 - عدم التعويل على المعيار التاريخي في تفسير الحالة الحاضرة.
- مرحلة النظر إلى ذهن متكلم اللغة بآلية التفسير: وعمدتها ما جاء به (جومسكي) من دراسة اللغة الداخلية، أي المعرفة اللغوية الموجودة في ذهن المتكلم، والموجودة مادياً في دماغه، وعرف هذا الاتجاه باللسانيات التحويلية التوليدية، وتعد نقطة الافتراق عن اتجاه دي سوسير الوصفي البنيوي، وفيها ارتضى (جومسكي) الاعتماد على النظرة التجريدية التفسيرية داغياً إلى البحث عن نظريات تفسيرية أكثر عمقاً، فالتكلم الأصلي يكتب نحواً معيناً على أساس أدلة مقيدة ومشوهة، بينما يعتمد النحو على نتائج تجريدية تمتد إلى خارج نطاق الأدلة²، ومن ثم يقدم التفسير الملائم للواقع النفسي المقرون بالوصف؛ ولأجل قراءة لسانيات (جومسكي) بوعي من الاختيار ينبغي أن التوقف على مرحلتين:
- *- مرحلة اكتساب اللغة، وهو "منهج ذهني يجعل ملكة اللغة قدرة فعالة غريزية وفطرية، وهي قدرة تخص الإنسان وحده"³، وليست اللغة - عند جومسكي - ظاهرة كلامية تتعلق بالمثيرات والاستجابات؛ بآية أن الاكتساب اللغوي يتشكل عن "طريق امتلاك الإنسان لمعارف لغوية تتضمن قواعد كلية"⁴، من غير الإغفال عن الجدل الحاصل في وجاهة ما يطرحه (جومسكي) على صعيد الاتجاهات، أو الأعمال الفردية كاللسانيات النسبية عند الأوراعي وغيرها.
- *- مرحلة الإبداع اللغوي، تتلخص بـ "مقدرة الإنسان على إنتاج جمل لا حصر لها دون أن يكون قد سمعها من قبل"⁵، فهي في ذهنه تمكنه من فهم عدد من جمل هذه اللغة وصياغتها حتى ولو لم يسبق سماعه من قبل، وكان هذا المنحى رداً على الأنظار التي آمنت بالتقليد والمحاكاة في لغة الإنسان، وأنه يجتر ما يسمعه من الملفوظ.
- وبعد هذا الوعي يتبين للمتلقي أن المنهج التوليدي التحويلي قائم على "دراسة الملكة الإنسانية العامة وقدرة الاستعمال اللغوي؛ لمحاولة بناء نحو يقوم أساساً على هذه الملكة، تكون قادرة على تفسير التراكيب السطحية من حيث أنها نتائج لتحولات كبيرة طرأت على التركيبات العميقة"⁶، وباستواء الوحدات اللسانية على عودها في التلقي، واطرادها في التصنيف، انطلقت اتجاهات لسانية متعددة يمكن للمتلقي أن يطلع عليها بتمثل:

¹ ينظر: دراسات في اللسانيات التطبيقية، ص 20.

² المسدي، عبد السلام، اللسانيات من خلال النصوص، الدار التونسية للنشر، ط1، 1999، ص 105.

³ بن التواتي، التواتي، المدارس اللسانية في العصر الحديث، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، دار الواعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1999، ص 140.

⁴ المصدر نفسه، ص 141.

⁵ زكريا، ميشال، الألسنية التحويلية وقواعد اللغة العربية، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، لبنان، ط2، 1986، ص 71.

⁶ اللسانيات واللغة العربية، ص 44.

✓ الاتجاه نصي:

- أجدُ المعالجة التدريجية للسانيات النصية أهلاً لأن يُصغى إليها إذا اتبعت هذه الصنوف:
- معالجة الأجزاء، فالجمل يتبع بعضها بعضاً، وفق نظام شديد، وتؤدي كل جملة إلى فهم الجملة التي تليها، والجملة التي سبقتها¹، ويمثل هذا الاتجاه (فاينريش) في تجزئة النص.
 - تقديم معايير ترجع أغلبها إلى النحو التوليدي بمعالجة الحذف والإضافة والترتيب نحوياً، ومعالجة الاستبدال والإحلال، ومثل هذا الشكل (فان دايك) الذي قال: "يبدو في الواقع أن الحقائق الأكثر تميزاً للنصوص أنها توجد أساساً في المستوى الدلالي، وكذا في المستوى التداولي"².
 - التحليل التوليدي للنص لصاحبه (بتوفي) الذي عد النص وحدة كلية، ورأى أن تكون النظرية نحوية الأساس متأثراً بالبنية العميقة للنص عند (جومسكي)³.
 - ولا يكفي بالكشف عن العلاقات الداخلية التي تمتد داخل النص، وتظهر في معانيه ومعاني أبنيته، بل يجب تحليل لنظم تلك المعاني الخارجية التي يميل إليها النص، وهي ما يطلق عليها المعاني الإضافية أو الإشارة أو الإحالية أو التداولية وغيرها⁴.

✓ الاتجاه الحجاجي:

- أودعت لسانيات الحجاج مبدأ التتابع في أدبيات توجيه الحجاج، وذلك بألية عُرفت بالسلامل الحجاجية التي تطرح تصوراً معيناً لكيفية تسلسل الحجاج وانتظار نتائجها، والمرء يكون أشد التماساً للعلة وطلباً للحجة، وموضوع الحجاج في اللغة يتأتى بـ "بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية، تمثل مكوناً أساسياً لا ينفصل عن معناه، يجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها يوجه قوله وجهة حجاجية ما"⁵.
- والسلامل الحجاجية تصور قَدَمه (ديكرد)، قاراً بأن الفروق بين الحجاج وقرابتهما ضمن القسم الحجاجي الواحد هو الذي اضطره إلى إدماج مفهوم السلم الحجاجي الذي به يميز بين قوة الحجة وضعفها عن غيرها، وأقدها على الإيصال إلى النتيجة، ويقوم السلم على علاقة تراتبية واختصاره (س خ) (E A) ويمثله الشكل⁶.
- ولمتابعة التحولات لا يفوتني التنبية على الاستدراك الحاصل في نظرية الحجاج، إذ لم تعد هناك حجج موجهة نحو النتيجة نفسها، ويمكن اعتبارها بدائل تترتب وفق سلم حجاجي كما في النسخة المعيار من النظرية؛ ليُطرح (ديكرو وكاريل) مفهوماً جديداً للحجاج موسوم الكتل الدلالية أو الملتحقات الدلالية غير قابلة للتجزئ دلالياً، وصار مفهوم الحجاج يشير إلى تسلسل لمقطعين من الخطاب، وتبنت النظرية في صورتها الجديدة مبدأ

¹ قدور، أحمد محمد، مبادئ في اللسانيات، الدار العربية، بيروت، ط2، 2001، ص 167.

² دايك، فان، النص بيان ووظائفه مقدمة أولية لعلم النص، ترجمة: جورج أبي صالح، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، العدد الخامس، 1989، ص 55.

³ مدخل إلى علم اللغة النصي، ص 54.

⁴ بحيري، سعيد حسن علم لغة النص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2010، ص 457.

⁵ صمود، حمود، نظرية الحجاج في اللغة ضمن كتاب الحجاج في التقاليد الغربية، دار الكتاب الجديد، ط1، ص 352.

⁶ شارودو، باتريك، الحجاج بين النظرية والأسلوب، ترجمة/ أحمد الودرني، دار الكتاب المتحدة، بيروت، ط1، 2009.

التضام الدلالي بين العنصرين، أي ما تسميه (كاريل) بالتسلسل الحجاجي، ففي غياب العلاقة الاستنتاجية لا حاجة لسلم حجاجي.

ولا يزال الاهتمام بالظواهر السلمية ووصفها وتحليلها بالأدوات التي تقترحها نظرية الكتل الدلالية (التسلسل الحجاجي)، والخطاظة الحجاجية، والحجاج الداخلي والحجاج الخارجي، والحجاج البنيوي والحجاج السياقي، والتمييز بين الروابط والعوامل بمنظور جديد مغاير لمفهومها في النسخ السابقة؛ تداركا لبعض جوانب القصور في التوجيه الحجاجي.

الشرط الثالث

اختيارات لاستيعاب الإجراء التركيبي والدلالي بين التراث والمعاصرة

إجراء من متعدد للتراث النحوي

أرسل إجراءات يجمعها جامع التتابع وتمكّن المتلقي من الفهم بتتبع الانتقالات المقبلة:

- مراعاة التحول في فكر العالم النحوي، ولي في ابن هشام خير استلال، إذ تدرج في إثبات روابط جملة الخبر بالمبتدأ عبر مصنفات المتواترة، وأظهر مرجعها من كلام العرب، ودوننا الخطوات التي سلكها ابن هشام:

الأولى: ذكره لأربعة من روابط المبتدأ هي: العموم، والضمير، والإشارة، وإعادة المبتدأ¹، فكانت مستهلاً استقرائياً في صورة غير مكتملة.

الثانية: ذكره لسته من الروابط تزداد على الأربعة الفائتة²، وبذا اكتمل عنده الاستقراء بعشرة روابط.

الثالثة: خطوة التحليل والنقد لما عن لابن هشام من مسائل، ولقد رأيت معترضاً بالقول: " كذا قالوا، ويلزمهم أن يجيزوا: زيد مات الناس، وعمرو كل الناس يموتون، وخالد لا رجل في الدار، أما المثال فقيل: الرابط إعادة المبتدأ بمعناه، على قول أبي الحسن في صحة تلك المسألة، وأما البيت فالرابط فيه إعادة المبتدأ بلفظه، وليس العموم فيه مراداً، إذ المراد أنه لا صبر له عنها؛ لأنه لا صبر عن شيء³.

فصنع ابن هشام تنسيق من الاستقراء إلى الاستنتاج بمتابعة التراكيب والائتان بالمثل؛ ليستبين حظ الاستدلال بالشاهد الذي سبق زمن الأحكام، وتستمر بأعين النحاة من عصور الاحتجاج إلى عصور متأخرة كعصر ابن هشام متخذين ثنائية الشاهد والمثال اللذين "يشكلان الاتجاه النصي في الحجاج، في حين تأتي الحجج العقلية غير النصية في الاتجاه الثاني ضمن ظاهرة القياس وتوابعها متحللة من الإطار، لكنها غير متحللة من الفضاء المعرفي وامتداداته في المعارف والعلوم والثقافات، وهي في حالة النحو العربي تعادل الكون، في حين يعادل النص الحياة؛ لهذا كان من البديهي أن تكون ظاهرة القياس امتداداً في الحجاج بعد امتداد؛ ذلك

1 ينظر: الأنصاري، ابن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ط11، 1964، ص 163.

2 ينظر: ابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1991، ج 1/ص199.

3 الأنصاري، ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط6، 1985، ص554. والبيت ألا ليت شعري هل إلى أم جحدر سبيل فأما الصبر عننا فلا صبرا.

أن النحوي عندما يقيس إنما يحاول اكتشاف شيء جديد في الكون الواسع، لا لمجرد الاكتشاف، بل لمحاولة تفسير الحياة اللغوية للغة العربية على الأقل¹.

• مراعاة التنوع في الفكر الجمعي للنحاة، وأضرب من شعر المتنبي ما دار فيه من توجيهات لإثبات أحقية التابع في تلقي مسائل النظام النحوي، قال:

إذا الجود لم يُرزق خلاصًا من الأولى فلا الحمد مكسوبًا ولا المال باقياً²

انطلق النحويون في تععيد القواعد في إعمال (لا) عمل ليس مع أن اسمها معرفة، وتشكلت آراء النحاة بثلاث خطوات كما في التنسيق الفردي السابق:

الأول: عدم الإنكار، وخبره عند ابن الشجري عن ابن الأثير (معاصر المتنبي وصديقه) أن ابن جني - من شراح شعر المتنبي - لم ينكر البيت³.

الثاني: محاولة الترخيح، وألفيت ابن مالك - القرن السابع الهجري - قد تدخل في هذا التركيب بتباين في الحكم، فلم يُنكر على المتنبي قوله، وعدّه صحيحًا، ولكنه لم يستشهد على إعمال (لا) في المعرفة سوى بشاهد واحد قال فيه: وشذ إعمالها معرفة، وعقب المرادي في القرن الثامن على شاهد ابن مالك لتصحيح بيت المتنبي بأنه يحمل التأويل، وحمل ابن مالك مئنة تقييس بيت المتنبي بإسناد الكلام إليه⁴.

الثالث: منظور الاعتراض، وتصدى له ابن هشام، إذ غلط المتنبي في قوله؛ لأنه قاس على النادر⁵، الذي لا يجوز القياس عليه عند الجمهور، لكن عقدة هذا البيت لم تنته، فبعد أن وافق عباس حسن على أن هذا البيت غير صحيح استثنى فقال: إلا عند الكوفيين، فإنهم لا يشترطون أن يكون اسمها وخبرها نكرتين، وبمذهبهم قال المتنبي⁶.

• مراعاة النظر إلى المخاطب، ولعل أولى تمثل لهذه المراعاة في باب أفعال المقاربة، إذ يستقيم المبني والمعنى، ويتلقاه المخاطب على بصيرة، واطلاق التركيب أدونه في ثلاث خطوات أيضاً:

الأول: القرب الشديد، ويمثله (كاد يفعل)، فدلالته أن وقوع الحدث مقرب أكثر من الأفعال الأخرى، فلا يجوز لنا أن نقول: كاد يذهب بعد عام؛ لأنه كاد توجب أن تكون شديدة القرب في الحال⁷. فتأتي كاد لمقاربة ذات الفعل من غير تراخ.

الثاني: القرب المتراخي، ويمثله (كاد أن يفعل)، قال العجاج:

ربع عفاه الدهر كطوراً فاما قد كاد من طول البلاد أن يمحتها¹.

1 ينظر: الملح، حسن خميس، الحجاج في الدرس النحوي، عالم الفكر، مجلد 40، ديسمبر، 2011، ص12.

2 المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1983، ص74.

3 أبو السعادات، ضياء الدين، أمالي الشجري، تحقيق: محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1991، ج1/ص431.

4 ينظر: المرادي، أبو محمد بدر الدين، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992، ص294.

5 ينظر: الأزهرى، خالد بن عبد الله، شرح التصريح على التوضيح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، ج1/ص267.

6 ينظر: حسن، عباس، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1975، ج1/ص602.

7 ينظر: ابن يعيش، موفق الدين بن يعيش النحوي، شرح المفصل، تحقيق: محمد بدر الدين النعساني، ط2، دار الجيل، بيروت، 1323هـ، ج3/ص303.

فبصرف النظر عن الآراء الصادرة في مجيء (أن) مع (كاد)، بالحمل على الضرورة أو حملها على المعنى أو جوازها²، فإني أراعي حال المخاطب فيما صدر عن المتكلم من تركيب، فلما كان رؤية يصف الآثار القديمة والأطلال الدارسة، وقد تداعت عليها نواذب الدهر، فجاء التركيب مقترناً ب(أن) الذي يناسب التراخي في الحدث فلم يحدث في الحال، وإنما اتصف بالتدرج عبر الأزمنة، ورؤية لا يريد أن يقول: إن ذهاب معالم الرسم يحصل في الحال القريبة بل يحدث بالتدرج والتراخي في المستقبل، وهو ما يفسر فكرة البحث، والحق أن دارسين قد ألمحوا لذلك الافتراق³.

الثالث: القرب غير المتحقق، وأبصره بتنوع الصيغ في ضروب الاستعمال اليومي الذي لا ينأى عن زيادة البنية والتأثر في اللغات، نحو "لقد كاد يفعل، هل كاد يفعل"⁴.

- المسار الإجرائي المستأنف

تشكل هذا الإجراء بالوقوف على الوحدات اللسانية، أو المستويات اللسانية، أو القطاعات اللسانية، وبصرف النظر عن اتفاق مؤدى التسميات أو اختلافها، فالذي يعينني - هنا - أن ضروبها جاءت متدرجة من الوحدة الصغيرة إلى الوحدة الكبيرة، وخير ما يوافق المقام الوجدتين الآتيتين:

- الوحدة الدلالية

ينبغي أن يفهم أنّ المقاييس اللسانية مستنبطة من النظام اللساني نفسه، وما يقدمه المعجم والتفريع المورفولوجي، والتفريع الاشتقاقي من تفسيرات، ما هي إلا آليات لبناء الحقل الدلالي، وثمة ضوابط عامة تحكم بناء الحقل تتجلى في ثلاث سمات⁵:

الأولى- السمات الدلالية: حيث يقوم كل حقل على مجموعة من العناصر التصويرية أو السمات الضرورية التي تشترك فيها وحدات الحقل، وهذه العناصر التصويرية لقيام الحقل هي التي تدل عليها سمات الحقل الدلالية.

الثانية- السمات المركزية: وهي سمات تتصف بالتدرج كما هي الحال في تدرج فروق الألوان، وتدرج علاقة الطول والعرض.

الثالثة- السمات المنطقية: وهي سمات تخضع للاستثناءات بصورة منفصلة، وطبقها غير متدرجة، فسمات أربعة أرجل في معنى كرسي يمكن أن تستثنى في حالة كرسي ذي ثلاثة أرجل.

1 العجاج، عبد الله بن رؤبة، ديوانه، رواية عبد الملك بن قريش الأصمعي وشرحه، تحقيق: عبد الحفيظ السطلي، مكتبة أطلس، دمشق، 2011، ص 173.

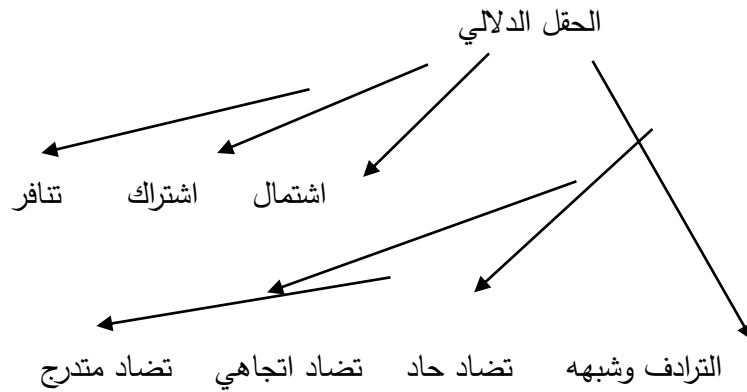
2 ينظر: ابن الحاجب، رضي الدين الاستربادي، شرح كافية، تحقيق: أحمد السيد أحمد، المكتبة التوفيقية، ج2/ص305

3 يمكن الإطلاع على: السامرائي، فاضل صالح، معاني النحو، دار الفكر، عمان، ط2، 2011، ج1/ص281، وبحث أفاد من معاني النحو كثيراً عنوانه: العظيمة، أحمد مطر، كاد استعمالها ودلالاتها.

4 حسان، تمام اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، مصر، ط5، 2006، ص372.

5 للتوسع في المسألة ينظر: حسام، التوليد التدلالي دراسة للمادة اللغوية في كتاب شجر الدر لأبي الطيب اللغوي في ضوء نظرية العلاقات الدلالية، مكتبة زهران الشرق، مصر، ط1، 2003، ص17-18.

- نحن إذن أمام حقول دلالية يمكن أن تتصف بالتتابع والتآني، وحينئذ يرد بها وجود تسلسل في البناء اللفظي، فقد ترد الكلمات من الأعلى إلى الأسفل أو العكس، أو تربط بين بناها قرابة دلالية، فالملفوظ إنسان هو مفهوم عام يتضمن مفاهيم صغرى (الرأس، الصدر، البطن، اليد، الرجل)، وهذه المفاهيم الصغرى بدورها تتجزأ إلى مفاهيم أكثر دنواً، فاليد تحتوي على الإبهام، والسبابة، والخنصر، والبنصر، والوسطى، والأظافر¹.
- وهذه النظرية تصلح لأن تكون منهجاً تواصلياً نقرأ به النصوص والخطابات، ولكن كل صنيع لا يسلم من المؤاخذات، ومما سُجل عليها:
- التفريق المتبادل وتحديد معنى الكلمات في محيط الحقل الواحد، بناءً على علاقتها بغيرها من الكلمات تؤدي إلى صعوبات منطقية، إذ يدخل التعريف في دائرة غير منتهية.
 - لا توجد حدود خارجية واضحة بين الحقول الدلالية؛ لأن خيوط الربط بين الحقول متصلة، وليست منقطعة تماماً.
 - لن تبين النظرية على أسس استقرائية، ولا يعدو الحقل أن يكون نموذجاً لغوياً محتملاً².
- وبعد مراجعات للمضان ذات العلاقة بالتوزيع الدلالي، خلصتُ إلى الترسيمة التي تبين موقعية التناسق في الحقل الدلالي:



والتدرج (credible opposition)³

- ومن أمثله في ولادة الطفل: مُحش وسُرْح، فالأولى تدل على خروج الولد من بطن أمه يابساً ميتاً، والثانية تدل على خروجه سهلاً حياً.
- ويمكن أن أتوسع في عرض هذا المنظور بتبيان علاقات التضاد الآتية:⁴ التضاد الحاد أو غير المتدرج، مثل: غني؟، فقير، ميت، حي.

¹ حسام الدين، كريم، أصول تراثية في علم اللغة، مكتبة الإنجلو مصرية، القاهرة، ط1، 1985، ص 76.

² ينظر: جيلالي، حلام، تقنيات التعريف في المعاجم العربية المعاصرة، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ط1، 1999، ص159.

³ مؤلفون، المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ط2، 1989، ص 202.

⁴ توسعت مؤلفات بعينها في هذا الجانب نحو: عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، عالم الكتب للنشر والتوزيع والطباعة، مصر، 2001، ص102، وحمام، أحمد عبد الرحمن، عوامل التطور اللغوي، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1983، ص 77.

- التضاد المتدرج: وهو ما يمكن أن يقع بين نهايتين لعيار متدرج، أو بين أزواج من المتضادات الداخلية¹ كالعلاقة بين الالفاظ الواقعة بين عبارة (الجو حار)، وعبارة (الجو بارد)، وهي (الجو دافئ)، (الجو معتدل)، (الجو مائل إلى البرودة)...، فهذه التراكيب الاسمية تمثل تضاداً داخلياً بين نهايتين.
- التضاد العكسي: وهو علاقة بين أزواج من الكلمات، مثل: باع، اشترى.
- التضاد الاتجاهي: مثل: أعلى، أسفل، يصل، يغادر.
- التضادات العمودية أو التقابلية: مثل: الشمال بالنسبة إلى الجنوب، والشرق بالنسبة إلى الغرب، وهذا الضرب من التضاد أيضاً.
- وأزلفت الحقول الدلالية للمتلقين غير بعيدة عن النظرية التحليلية المعجمية التي ما كان لي أن أغادرها إلا بعد أن أرسم للقارئ اتجاهاتها مشفوعة بمرجعياتها:
- اتجاه تمهيدي، وكفى بقول (بوتي) هادياً له، إذ جعل العلاقات بين المدلولات يجب أن تكون موضع دراسات مكثفة من قبل مؤلفي القواميس، وأن اللسانيات النظرية يجب أن تسبق دائماً التطبيقات².
- اتجاه توجيهي لطرفين أحدهما: صانعو المعجمات، إذ بهم حاجة إلى النظرية التحليلية حين صياغته للتعريف وحين محاولته وضع الخطوط الفاصلة بين الكلمات المتقاربة أو المتشابهة المعنى، التي كثيراً ما يحدث الخط بينها، والآخر: متلقو المعجمات، فيحتاج ابن اللغة العادي إلى التفرقة بينها مراعاة للصحة اللغوية، وهو محتاج كذلك إلى استخدام نظام الإحالة من مدخل إلى آخر³، فلا يكون في أمر مريح من تداخل الدلالات.
- اتجاه تطبيقي، بمعرفة تصنيف المعجمية "الدنيا التي تسمى (سيميم) إلى ذراتها الصغرى وتسمى كل ذرة منها (سيم)"⁴.
- ولقد اخترنا التطبيق الآتي على علم:
الأسرة: مجموعة - سيم 1، بشرية - سيم 2، متقاربة - سيم 3، الأب - سيم 4، الأم - سيم 5، الأبناء - سيم 6، ... إلخ.

صفوة تعليمية التواصل

- تتم قراءة النصوص انطلاقاً من مرتكزات التاريخ المشفوعة بالحاضر الراهن، ومراعاة الجو العام للنص الذي تشكل في إطاره؛ وصولاً للمنشود المتسلحبالخبرات صارمة.
- إنَّ القراءة الذاتية تلوذ بالذاكرة المعرفية؛ لفهم النص وتأويله وتمكين التماور مع المتلقي، والقراءة الجمعية تشمل كل ما كان يقع خلال المدة الزمنية والتاريخية المحددة، واستيعاب التوافق في الخطاب المطروح، والاختلاف الذي لم يفسد في الود قضية في بعض جوانبه، والقراءة الفكرية بالاستنتاج المحكوم بسلطة النص، والتأويل بانتاج وجهات النظر، والتشخيص برصد المآخذ.

¹ ينظر عمر، أحمد مختار، نظرية الحقول الدلالية واستخداماتها المعجمية، مجلة كلية الآداب والتربية، الكويت، ع 13، 1999، ص 16.

² ينظر: نظرية الحقول الدلالية، ص 22.

³ ينظر: علم الدلالة، ص 54.

⁴ الصناعة المعجمية، ص 211.

- ظهر أن التنوع في مرجعيات القراءة متأصل في المتن التراثي، ومتحقق في النشاط اللساني، كالتنوع في النحو العربي وفهمه، من المتون في السماع والقياس، والترتيب المنهجي وتقرير الإيضاح، ثم ملامح النفور من التكرار، والتقليل من الصناعة باستطراد، وانتهاءً بجراءة التجديد، وبمحاولات وسمت بالتيسير.
- تحري التنوع في فهم المقاييس اللسانية المستنبطة من النظام اللساني نفسه، وما يقدمه المعجم والتفريع المورفولوجي، والتفريع الاشتقاقي من تفسيرات لبناء الحقل الدلالي المحاط بالسمات: الدلالية والمركزية والمنطقية التي تصلح أن تكون منهجاً نقرأ به النصوص والخطابات على ما فيها من المؤاخذات؛ بآية عدم وجود وصاية للنظريات على المتلقي، ووجاهة المحتمل والظني لديمومة النقد والاستدراك وإنتاج المعارف.
- تتسق المعرفة التراثية واللسانية بوجود تحولات فكرية كصنيع ابن هشام في إثبات روابط جملة الخبر بالمبتدأ، وتبيان مرجعها من كلام العرب، وصنيع النحاة في تنوع توجيه الشواهد الفصيحة؛ لإثبات أحقية تلقي مسائل النظام النحوي باختلاف العصور، وكذا المعرفة اللسانية بالنظر إلى ذات اللغة في أعمال (دي سوسير)، وأعمال (جومسكي) باكتساب اللغة، كمنهج ذهني يجعل ملكة اللغة قدرة فعالة غريزية وفطرية، والإبداع اللغوي بمقدرة الإنسان على إنتاج جمل لا حصر لها دون أن يكون قد سمعها من قبل.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- ابن الحاجب، رضي الدين الاستربادي، شرح كافية، تحقيق: أحمد السيد أحمد، المكتبة التوفيقية، (د، ت).
- الأزهرى، خالد بن عبد الله، شرح التصريح على التوضيح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000.
- أبو السعادات، ضياء الدين، أمالي الشجري، تحقيق: محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1991.
- إسماعيل، حافظ عليوي وأمجد الملاح، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2006.
- ابن عصفور، أبو الحسن علي بن مؤمن، شرح جمل الزجاجي، تحقيق: فواز الشعار، دار الكتب العلمية، القاهرة، 1998.
- أبو المكارم، علي، الحذف والتقدير في النحو العربي، دار غريب، القاهرة، ط2، 2001 .
- الأنصاري، ابن هشام:
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1991.
- شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ط11، 1964.
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط6، 1985.

- أيوب، عبد الرحمن، دراسات نقدية في النحو العربي، مؤسسة الصباح، الكويت.
- بحيري، سعيد حسن علم لغة النص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2010.
- بشر، كمال، دراسات في علم اللغة، القسم الثاني، دار غريب، القاهرة، 1986.
- البهنساوي، حسام، التوليد التدلالي دراسة للمادة اللغوية في كتاب شجر الدر لأبي الطيب اللغوي في ضوء نظرية العلاقات الدلالية، مكتبة وهراء الشرق، مصر، ط1، 2003.
- بن التواتي، التواتي، المدارس اللسانية في العصر الحديث، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث دار الواعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1999.
- الجابري، محمد عابد، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1985.
- جيلالي، حلام، تقنيات التعريف في المعاجم العربية المعاصرة، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ط1، 1999.
- حسام الدين، كريم، أصول تراثية في علم اللغة، مكتبة الإنجلو مصرية، القاهرة، ط1، 1985.
- حسان، تمام اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، مصر، ط5، 2006.
- حسن، عباس، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1975.
- حماد، أحمد عبد الرحمن، عوامل التطور اللغوي، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1983.
- خليل، حلمي، العربية وعلم اللغة البنيوي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط1، 2000.
- دايك، فان، النص بيانه ووظائفه مقدمة أولية لعلم النص، ترجمة: جورج أبي صالح، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، العدد الخامس، 1989.
- الراجحي، عبده، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط1، 1988.
- زكريا، ميشال، الألسنية التحويلية وقواعد اللغة العربية، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، لبنان، ط2، 1986.
- أبو زيد، حامد نصر، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط6، 2001.
- السامرائي، فاضل صالح، معاني النحو، دار الفكر، عمان، ط2، 2011.
- شارودو، باتريك، الحجاج بين النظرية والأسلوب، ترجمة: أحمد الودرني، دار الكتاب المتحدة، بيروت، ط1، 2009.
- صمود، حمادي، نظرية الحجاج في اللغة ضمن كتاب الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط2، 2010.
- طحان، ريمون، الألسنية العربية، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1981.
- العجاج، عبد الله بن روبة، ديوانه، رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي وشرحه، تحقيق: عبد الحفيظ السطلي، مكتبة أطلس، دمشق، 2011.
- عليوي، حافظ إسماعيلي، أسئلة اللسانيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط2009، 1.
- عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، عالم الكتب للنشر والتوزيع والطباعة، مصر، 2001.

- غلفان، مصطفى، اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في الأسس النظرية والمنهجية، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1998.
- الفارابي، أبو نصر، إحصاء العلوم، تحقيق: علي بو ملحم، ط1، دار ومكتبة هلال، بيروت، 1996.
- الفهري، عبد القادر الفاسي، اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية، دار توبقال للنشر، المغرب، ط3، 1993.
- قدور، أحمد محمد، مبادئ في اللسانيات، الدار العربية، بيروت، ط2، 2011.
- الكردي، عبد الرحيم، قراءة النص مقدمة تاريخية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2006.
- مؤلفون، المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ط2، 1989.
- المتنبّي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، ديوان المتنبّي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1983.
- المتوكل، أحمد، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2006.
- المرادي، أبو محمد بدر الدين، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992.
- المسدي، عبد السلام:
- التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط2، 1986.
- اللسانيات من خلال النصوص، الدار التونسية للنشر، ط1، 1999.
- مصلوح، سعد عبد العزيز، في اللسانيات العربية المعاصرة، عالم الكتب، بيروت، ط1، 2004.
- الموسى، نهاد، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، المؤسسة العربية، عمان، 1980.
- النوري، محمد جواد، الصناعة المعجمية نشأتها تطورها مدارسها، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2019.
- هينه، فولفجانج، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة: فالح بن شبيب العجمي، دار الفجر للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 1999.
- ابن يعيش، موفق الدين بن يعيش النحوي، شرح المفصل، تحقيق: محمد بدر الدين النعساني، ط2، دارالجيل، بيروت، 1323 هـ .
- **الدوريات**
- حمودة، عبد العزيز، المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، عالم المعرفة، ع272، 1990.
- زيدان، يوسف، التراث العربي من التثقيف إلى المثاقفة، مجلة التراث العربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، س6، ع، 24، 1988.
- عبد الهادي، محمد، التراث بين القطيعة والتواصل، أبحاث المؤتمر الرابع لإقليم شرق الدلتا، 2005.

- عمر، أحمد مختار، نظرية الحقول الدلالية واستخداماتها المعجمية، مجلة كلية الآداب والتربية، الكويت، ع 13، 1999.
- الفهري، عبد القادر الفاسي، ملاحظات أولى عن تطور البحث اللساني، ندوة اللغة العربية والنظريات اللسانية، كلية الآداب، فاس، سايس، المغرب، 2007.
- مصلوح، سعد، نحو أجرومية للنص الشعري، مجلة فصول، م 10، ج 1، 2000.
- الملح، حسن خمبس، الحجاج في الدرس النحوي، عالم الفكر، مجلد 40، ديسمبر، 2011.
- ناصف، مصطفى، اللغة والتفسير والتواصل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع 193، 1995.

المراجع باللغة الأجنبية:

- Chomsky, Noam, et la linguistique cartésienne, Revue Philosophique de Louvain. Quatrième série, tome 71, 1973.